كتاب ري سامراء

بقلم الاستاذ : عبد الحميد الرشيدي

اصدر الدكتور البحاثة حمدي سوسة في السنة الماضية الجزء الاول من كتابه ري سامراء. فجاء ذلك الجزء فذا في ابحاثه وتحقيقاته وتنسيقه ورسومه وخرائطه ، ولم يأل جهدا في ضبط النصوص والخطط وطرق الري القديمة وتحديدها وما الى ذلك ، ومهما نوقش المؤلف في بعض العقرات والافتراضات فقد سد ذلك الجزء فراغا في المكتبة العربية .

ولاشك ان الدكتور معروف بمثابراته ونشاطه العلمي لذلك لم تمض برهة من الزمن حتى اصدر اليوم الجزء الثاني من ذلك الكتاب . هذا الجزء الذي يفوق الجزء الاول توسعاً في المواضيع وتتميماً للنصوص القديمة وتداركا لما فات في الجزء الاول مضافا الى الابحاث القيمة واللذيذة في الوقت نفسه .

ولقد فتح الدكتور بكتابه هذا ابوابا للبحث كان متتبعوا الجغرافية في هذا البلد في حيرة منها وهم ان يحثوا عرضا ومروا خفافا فلم يلموا بما الم به المؤلف . ولا نبالغ اذا قلنا ان جميع ابحاث الكتب في جزئيه جديرة بالمطالعة لكل من يروم ان يعرف تأريخ الري في هذا القطر وحواليه اذ تعرض الدكتور لاغلب المشاريع قديماً وحديثا ، ومنذ العهد البابلي فالروماني فالفارسي فالعربي فالتركي فالعثماني فالوطني . ولقد كنا نقرأ في كتب التأريخ عن وفرة نفوس العراق في العهد الاموي والعباسي . وكنا نقرأ جداول الضرائب واسماء القرى والمدن وانواع المزارع والطوحات ، ونحن نتعجب من هذا الذي نقرأه لأننا نعرف ان قطرنا في الوقت الحالي لايستوعب ثلث مانقرأ فكيف بتلك الازمان المتوغلة في القدم والجهل باصول الري . فلما قرأنا كتاب الدكتور وابحاثه عن النهروانات وفروعها وقراها ومدنها وطسوجها وعن الثرثار ونهر الخابور وسد الثرثار والخابور وفروع هذا النهر وما عليه من قرى ومزارع في تلك الوديان القاحلة اليوم وفي تلك الارضين الجافة اليوم وقرأنا عن حضارة الحضر وعاصمة تلك الامارة عرفنا سر تلك الامور التي كنا مترددين في صحتها نعم لقد كانت هذه البقعة من الارض عامرة عمرانا لا يطرأ على بال احد اليوم من سكانها المزارعين ، كم تعجبني كلمة الدكتور في كتابه « وادي الفرات » حيث قال : « كانت هذه البلاد اعظم بلاد العالم عمراناً واغناها حاصلا ، وكانت في العهد الفارسي في حالة عمران زاهر ايضا . ثم لما جاء العرب بعد ذلك حافظوا على مشروعات الري ، زادوها شقوا الترع الكثيرة وما نشاهده الآن من آثار شبكة الانهر القديمة والتلول الاثرية والابنية القديمة المنتشرة في تلك المنطقة في كل مكان منها هو الا مظهر من مظاهر الدلالة على مقياس الرقي والعمران ومدى ازدهار الحياة الزراعية في ذلك الزمن » وقد ذكر المؤرخون العرب : ان القرى الزراعية كانت متقاربة حتى ان الديكة كانت تجاوب بعضها بعضا على طول المسافة بين بغداد والبصرة وان المأمون لما عند زيارته مصر فرعون لانه طغى بها وقال لوانه رأى ارض الرافدين لما طغى في مصر .... »

وقال الدكتور ايضا في الفصل الثامن من وادي الفرات : « قد يصح لنا ان نزعم ان التحول في نهر الفرات الى الكوفة قد تم نهائياً في القرن (٦٧) م حيث دخل الفرات منذ ذلك الوقت في عصر هو من اظلم العصور في تاريخه اعني دور الاضطرابات والانقلابات التي جاءت بالخراب والدمار على القطر كله اذا كاد ينتهي دور هولاكو حتى اعقبه دور الخلائريين ومن بعده من ادوار التتر والتركمان والفرس ، وبقي على هذه الحال في لجج القلاقل والانحلال والفقر حتى جاء العهد العثماني ... وكان من المنتظر ان يقوم الاتراك بشيء من الاصلاح ... إلا انهم اهملوا شؤون العراق بصورة عامة ومن جملتها شؤون الري إذ انهم لم يفكروا بأي اصلاح جوهري بل تركوا البلاد تئن تحت نير الفقر والجهل والخمول مدة سيادتهم .. »

هذا ما قاله الدكتور في اهم كتاب من مؤلفاته بعد كتاب ري سامراء ؛ ومن الانصاف ان نقول ان ابحاث الدكتور

الطريفة والمفيدة لتدل على صحة ما قال وان بلادنا بانهارها المندرسة ومدنها القديمة الخربة وقراها المتبقية منها تلول وايشانات واعمده جسور كلها لتنطق بعظمة هذه البلاد في الزمن الغابر وتنطق بثراء هذه البلاد ووفرة خيراتها في القديم، وان المشاريع التي عالجها الدكتور في آخر هذا الجزء والحلول التي جاء بها لهذه المشاريع وكيفية اعادتها على ما كانت لو طبقت لاصبحت بلادنا اليوم من اعظم بلاد العالم في الخيرات والتقدم الزراعي والعمراني .. ونقدنبه المؤلف في كتابه هذا الى امور في الري لم يتطرق اليها قبله احد إلا الماما فبحثه عن قناطر الخيزران وعن تحول دجلة في الجنوب من النهروانات وبحثه عن الثرثار وبني تغلب وقيس ونهر الهرماس وسكير العباس وسدة السهيلية وآثار مجرى دجلة ومدنه وقراه في طوره الثالث والرابع والانهر المتفرعة من دجلة في جنوب واسط وابحاثه عن الخير والاستفادة من قصيدة البحتري وما الى ذلك كلها لذيذة نافعة ولا سيما في فهم حوادث هذا البلد التي وقعت في العهد الاموي والعباسي وما بعدهما .. اما بحثه عن النهروانات في العهد العباسي الزاهر فمن اجل الابحاث حيث شرح لنا الكور الثلاث التي كانت ضمن النهروانات وما يتبعها من مرافق زراعية وعمرانية ولقد اتعب المؤلف نفسه في جمع هذه النصوص من كتب العرب حسبما استطاع ...

حقا ان ابحاثه عن عبرتا ومدينة اسكاف بني جنيد ودير العاقول ومدينة هماية ، وفاروث بالهنائس ، وقرية سابس ، وفم الصلح والنعمانية ، وجبل ، والرصافة ، وقرية نهر المبارك ، ونهر ميمون ، من اطرف الابحاث ؛ نعم لولا ياقوت وابن عبدالحق وبعض المستشرقين ، وابحاث سوسة ومشاهداته لما عرفنا شيئا عن تلك المدن ومزارعها وتاريخها ، وعن معيشة تلك الاقوام العراقيين الذين كانوا يعيشون على ضفاف دجلة والفرات ، اننا كنا نمر بتل ابي ضباع ، والكوشة ، وسعيرة ، ونهر ابي طبرة ، وتل الدهيمي ، وايشان ابي خاثورة ؛ والمجبرش ، والمنخ والسحول ، وبلجليات ، وابي الفضل ، وما الى ذلك من تلول وايشانات . وما كنا نعرف بالضبط انها كانت مدنا عامرة وقرى زراعية مهمة ومزارع وعمارات وانهر عاش بينها آباؤنا الاقدمون . وقبل ان انهي كلامي عن هذا الجزء اذكر ما لاحظته اثناء قراءتي له مع العلم بانها ملاحظات طفيفة بسيطة لأهمية الكتاب واثره العلمي ..

١ ـ مما يؤسف له ان في هذا الجزء اوهاما لغوية ونحوية وهذا على خلاف ما عودنا عليه الدكتور في كتبه ، واليك بعض الامثلة من كثير مما جاء في الكتاب كقوله في ص ٢٨٥ « ويمكن تتبع آثار القناة بكبريزها » والكبريز مرادف للقناة فلا تصح العبارة ، وفي ص ٢٨٦ « مالم يقام ناظم قاطعي » والصحيح مالم يقم وفي ص ٢٩٠ « ولعل هذان القاطولان اللذان يشير اليهما » ، والصحيح ولعل هذين القاطولين اللذين . » وفي ص ٢٩٨ « واذ ضيح الرحيل » والصحيح بالرحيل وفي ص ٤١٧ « ابي علي محمد بن الحسن القمي » بالقاف والصحيح بالعين ، وهو احد افراد عائلة العمي العلمية البصرية ولهم تراجم في فهرست الشيخ والنجاشي .

٢ ـ ضبط في ص ٢٨٩ قصر المتوكل بركوارا والذي أراه هو بزركوارا ، وكلا اللفظتين فارسيتان فابركث ورق الشجر والبزرك العظيم ، وبما ان القصر فخم عظيم فارجح اللفظة الثانية .

٣ ـ في ص ٢٩٥ و ٤٠٤ وغيرهما (ابن مسكويه) والصحيح متى دون (ابن) ..

٤ ـ في ص ٣٦٣ ما يفيد ان باجسرا العتيقة هي ابي جسرة الحالية قرب بعقوبا ، والصحيح انها هي نفسها ولكنه اعتمد على قول ابن سرابيون ، وكان قد نقل في الجزء الاول صفحة ١٥٦ مع انه نقل في الجزء الثاني ٣٨٧ عن المراصد ان نهر تامرا (اي دبالى) على شاطئه باجسرا وبعقوبا والنهر وان بهذا الترتيب ، وهو يفيد ان باجسرا كانت فوق بعقوبا كما هي عليه الآن وقد ذكر الدكتور نفسه في ص ٦٠٩ نقلا عن كتاب التنبيه والاشراف ان قرية باجسرا كانت على فرسخين من دسكرة الملك وهذا تأييد لما قلنا ونقل عنه في ص ٦١١ ان نهر تامرا يمر بباجسرا ثم بمر ببعقوبا ...

٥ ـ في ص ٣٧٢ نهر ابو تمارة ، واعاد ذكره في ص ٤٠١ وذكر ان ابا تمارة لعله تحريف بتمار وهو اسم قرية من قرى

بغداد جاء ذكرها في المراصد وقضيف الى قول الدكتور ان بتمار جاء ذكرها في كتاب « الانساب » للسمعاني قبل المراصد وقال هي قرية من قرى النهروان ببغداد منها ابو ابراهيم نصر الله ابن ابي غالب البتماري ..

٦ ـ قال في ص ٣٨٤ « على نهر الصراة الذي يتفرع من نهر الفرات » والصحيح يتفرع من نهر عيسى كما هو في معجم البلدان وغيره .

٧ ـ صحح الدكتور في ص ٣٨٧ كلمة باجبارة الواردة في مادة تامرا من المراصد بكلمة باجسرا والاصح باجزي ذكرها مؤلف المراصد بصورة بجزي وقال قرية في طريق خراسان وذكرها العماد الاصفهاني في اخبار السلجوقيين اختصار البنداري في ص ٢٣٧ حيث قال : وخيم الخليفة على مرحلتين من بغداد في موضع يعرف بباجزى ، وذكرها ابن الاثير في حوادث ٥٤٩ بكزي بالكاف ...

٨ ـ وقع في ص ٤٩٧ (سنة ٦٣٢) والصحيح ٦٢٣ .

٩ ـ في ص ٣٧٥ (فذكر المستوفي الذي زار المدائن في القرن الثاني الهجري) والصحيح وذكر المستوفي الذي زار المدائن في القرن الثامن الهجري ...

١٠ ـ قال في ص ٤٤٧ عن مدينة جرجرايا ذكر ابن عبد الحق انها بلدة من اعمال النهروان الاسفل ... اما ياقوت فقد ابد ذلك ... وهذه العبارة من الدكتور مقلوبة كانت الاحرى التقديم والتأخير فيها لان المتقدم لا يؤيدا المتأخر .

١١ ـ ذكر في ص ٤٤٦ المدن القديمة التي كانت بين منطقة واسط والبصرة والاهواز وقاته ذكر مدن عراقية مهمة هناك ذكرها ياقوت وغيره وهي:

١] الطيب : وهي بليدة بين واسط والاهواز واهلها نبط ولغتهم نبطية « صابئة » كما يقول ياقوت .

٢] متوث : وهي قلعة حصينة بين الاهواز وواسط وقد نسب اليها جماعة من اهل العلم والحديث .

٣] قرقوب : بلدة بين واسط والاهواز وكانت كمد من اعمال كسكر كما يقول ياقوت .

١٢ ـ قال في ص ٤٣٨ « وكان في جنوب واسط عدة فروع تنتهي كلها الى البطائح » وكلة كلها اراها زائدة لان نهر ميسان نهر كبير وكان يتجه جهة الشرق لا جهة البطائح كما يؤيد ذلك ما ذكره المؤلف في ص ٤٤٥ .

١٣ ـ نقل في ص ٣٧٦ عن الدكتور روبتر الالماني من ان قصر المدائن شيد ليكون مقراً لملوك الفرس يقيمون فيه عندما يخرجون للصيد والقنص .

وهذا الذي نقله المؤلف عن هذا الالماني لا يقره التاريخ .

١٤ ـ في ص ٣٦١ نقل عن ابن حوقل ان النهروان مدينة يشقها نهر النهروان ..... يفضي الى سواد بغداد اسفل من دار السلطان ، يقصد بغداد » ... ان كلة يقصد من الدكتور غير صحيحة وانما يقصد ابن حوقل دار الخلافة لا بغداد نفسها

١٥ ـ ذكر في ص ٣٤٨ بركة اخرى عملها المتوكل قرب القاطول جنوبي سامراء والذي اعتقد ان ذلك غير صحيح قطعاً وإلا لاشار الى ذلك المؤرخون ولما فات ذكرها في شعر البحتري ..

١٦ ـ جاء في ٣٠٩ (... كان للبركة حوض واسع .. وكان يطل على هذا الحوض بهو مرتفع ..) وهذا الاستنتاج للدكتور من قول البحتري :

لهن صحن رحيب في اسافلها اذا انحططن وبهو في اعاليها

لا يصح لان البحتري يقصد وجه البركة وقصرها .

١٧ ـ ذكر في ص ٥٢٧ وقعة السكير من حوادث ٧٠ للهجرة ناقلا ذلك عن ابن الاثير ولكن الدكتور في ص ٥٣٠ رجح ان السكير منسوب الى العباس بن عمرو الغنوي المتوفي كما يقول ابن خلكان ٣٥٠ وهذا الترجيح ينافي ما نقله عن ابن الاثير من ذكر سكير العباس .

١٨ ـ قال في ص ـ ٤٦١ ـ « ويستدل مما كتبه نعمة الله الجزائري من اهل واسط » . والذي ارى ان كلة من اهل واسط غير صحيحة ولا معنى لها لأن نعمة الله كستري عاش في تستر واصفهان والنجف ولا علاقه له بواسط ؟

حميد المجيد